قصة قصيرة

أقدم حقيبة في العالم

عبد الستار البيضاني

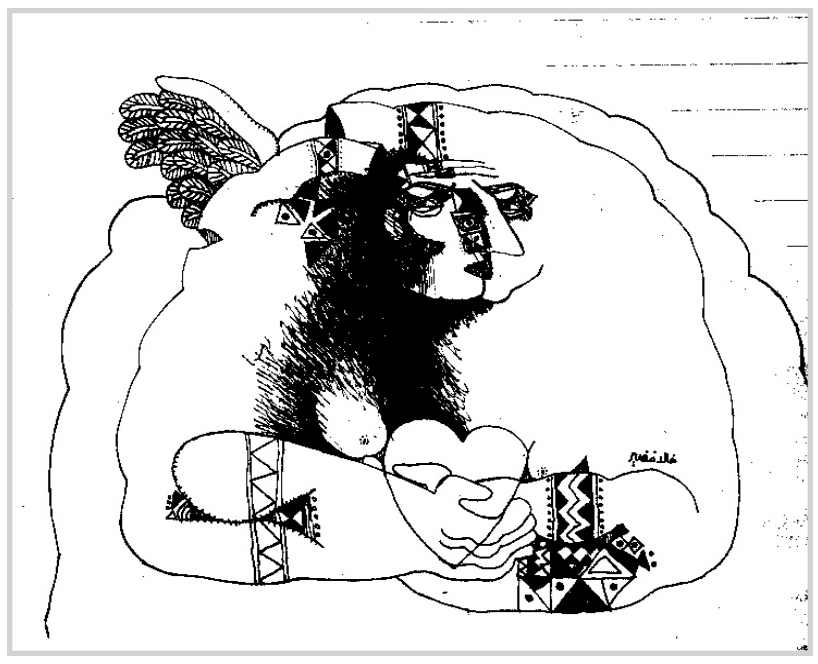

لم اشتق في حياتي إلى شيء مثل اشتياقي إلى حقيبتي هذه اللحظة. هكذا اختصرت تاريخ أشواقي عندما أخبرني حارس بوابة صالة وصول المسافرين في مطار القاهرة الدولي؛ ان حقيبتي وصلت في طائرة ليلة أمس، أزداد شعوري هذا عندما ركض باتجاهي عامل مخزن الأمتعة المفقودة، وهويصيح:
ـــ مبروك يابيه...الشنطه وصلت.
عامل التنظيف الذي كان يمسح بلاط الصالة غير بعيد عني، أسرع خطاه باتجاهي عندما سمع كلام عامل مخزن الأمتعة وراح يهنئني بكلام لبق، ومد يده ليصافحني بطريقة فهمت مغزاها فورا، مما أحرجني وأنا الذي أحرج بسهولة، بحثت له في جيبي عن جنيهات، وجدت ثلاثة أعطيتها له، فتعالى صوته:
ـــ مبروك ياباشا..كتر خيرك.
راح يردد هذا حتى أختفى خلف كابينات الهاتف، فظهر لي عدد آخر من العمال والمنظفين وسائقي سيارات الأجرة الذين ينتظرون المسافرين وجميعهم يباركون لي ويدعون بالخير من دون ان يعرفوا لماذا يباركون!.
لكن يدي التي يحركها حرجي باتجاه جيبي كانت تزيد من تبريكاتهم مادامت تخرج لهم بالنقود من فئتي خمسة وعشرة جنيهات، حتى لم يتبق في جيبي غير العملات من الفئات الكبيرة، فاضطررت الى التوقف عن العطايا برغم الخجل والأحراج اللذين استوليا علي.
موقفي هذا أثار عطف الحارس علي، فسحبني الى خلف الجدار الزجاجي قريبا من جهاز الفحص الالكتروني، ليبعدني عن الحشد المتكاثر بطريقة عجيبة!لكن مع ذلك كان يطل علي بين الحين والآخر من يبارك لي وعيناه على يدي علها تتحرك مرة أخرى الى جيبي!.
مع كل وجه يطل ومع كل تهنئة كانت تشتعل أشواقي الى حقيبتي، حتى خيل لي أنها ليست حقيبة وإنما شيئ من تلك الأشياء التي ستغير حياة العالم نحو الأحسن...شعوري هذا يتنامى بالرغم من انني أدرك جيدا أنهم يهنئونني من أجل "البقشيش"!، فهؤلاء جميعا لا أعرفهم ولم أر وجوههم، ولم يعرفوا أنني انتظر مجرد حقيبة لاتختلف عن حقائب المسافرين، باستثناء حارس البوابة وعامل مخزن الأمتعة اللذين تعاطفا معي منذ اليوم الأول لمراجعتي لهما، أي اليوم الثاني من وصولي القاهرة، حيث أخبرني موظفو شركة الطيران ان حقيبتي وحقائب أخرى بقيت في مطار بغداد لعدم سعة الطائرة.
على مدى أربعة أيام، كنت أقف يوميا منكسرا أسألهما عن وصول حقيبتي، فيجيباني بالنفي، لكني ولشدة أرهاقي أقف أمامهما وكأنني لأأريد أن أصدق ما يقولانه لي ؛ فتارة أتوسل، وتارة أخرى أشكو حالي..تصوروا شخصا وضع كل أشيائه في حقيبة واحدة وفقدها في بلد غريب لايعرف فيه أحدا ، حتما سيشعر أنه مثل العاري وسط الناس لايعرف كيف يخفي عورته!.
في اليوم الأول عندما قالوا لي ان الحقيبة ستصل غدا، قلت مع نفسي: لابأس مادام جوازي ونقودي معي، فهي ساعات وتحل المشكلة!، لكن في الفندق وحالما استرحت على السرير، وبدات بحساب نقودي وتذكري لأشيائي التي في الحقيبة شعرت بالحيف وهيمن على شعور معاند بعدم شراء ملابس جديدة، وفضلت البقاء بملابسي هذه مهما كانت تضايقني حدادا على غياب حقيبتي...لماذا حقيبتي دون غيرها تبقى في مطار بغداد؟.
لم انزع ثياب الحداد بالرغم من ان منظري صار مملا، إذ أنني أنام بها، واخرج بها للتنزه أو للمطعم وأراجع المطار، تخيلت منظري، هيئتي بها رثة وبائسة، لكنها ثياب حدادي على حقيبتي!.
عندما سألت الحارس في اليوم الأول لمراجعتي، أجابني بجفاء "ان طائرة بغداد لم تصل لحدوث خلل فيها".سألته أسئلة أخرى أعرف انه لايمتلك الأجابة عنها، لذلك اشاح بوجهه عني جزعا وهو يحاول الانشغال بمراجعين أخرين.
لم أتحرك من مكاني..لاأعرف الى أين أذهب، شعرت ان منظري بملابسي التي تراكمت عليها الأوساخ يضفي على ملامح الانكسار...رحت اتطلع في وجوه القادمين والمستقبلين في الصالة وكأنني أبحث عن اجابة مفقودة فيها.
لاحظت أن الحارس يراقبني بالرغم من أحاديثه المتقطعة مع المراجعين أومع الضابط الجالس على جهاز الفحص التلفزيوني..
بعد نحو ساعة فتح الباب الزجاجي وسألني:
ـــ انت عراقي؟.
أجبته بصوت لزج:
-نعم.
- حقيبتك بقيت في مطار بغداد؟
- نعم.
ـــمطار بغداد لايؤتمن..منه أحتل الأمريكان بغـداد.

لم أجبه فقد ضجرت من أحاديث الآخرين عن شؤوننا العراقية ونحن صامتين.أنشغل بمراجع آخر ومن ثم عاد يسألني:
ـــ هل كنت هناك عندما دخل الأمريكان بغداد؟
ـــ نعم..وبيتنا يقع على شارع المطار.
ـــ يعني شاهدت الحرب؟
ـــقل عانيتها.
ورحت أجيب على جميع أسئلته محدثا أياه عن ايام الدم والدخان والغبار والظلمة، والدبابات التي توزع علينا الحلوى والرصاص، وهي تدوس بسرفاتها شعارات العنجهية التي ألهبت ظهورنا بسياط الحروب والجوع والقمع..
منذ تلك اللحظة حيث سقاني مياه معدنية من قنينة بلاستيكية صغيرة، والحارس مشدود الى حكاياتي عن مدن تحترق، وأجساد تتساقط مثل أوراق الأشجار في موسم الخريف...وأشتد تعاطفه معي عندما قلت له"انا هارب من موسم الخريف البشري في بلادي لكي لا أسقط بهبة ريح لاأعرف من أين تهب".
كاد الحارس يبكي على حالي عندما عرف انني هارب من الموت الذي لا اعرف مصدره، وهو الذي جعل عامل مخزن الأمتعة يتعاطف معي، فراح هو الآخر يقلب أوجاعي بأسئلة عن قصص الف حرب وحرب.

❖ ❖ ❖

قررت قطع أي حديث مع السائق الذي استأجرته بالرغم من أنه بادرني بالقول"الحمد لله على السلامة"، فقد أنشغلت باستعادة صور وكلمات المصريين الذين هنأوني بوصول الحقيبة منشرحا لكلامهم الجميل ولسانهم الحلو، وبين المتعة والأستغراب في هذه الأستعادة قفز تفكيري الى الحقيبة المربوطة الى سلة السيارة العلوية..حقيبة ألهبت كل هذه المشاعر ربما ستؤذيها الريح ؟..ضحكت في دواخلي من هذا الخاطر، منذ متى وأنا أخاف على هذه الحقيبة من الشمس والريح؟..أنها من النوع الذي لايخاف عليه. ربما هي أقدم حقيبة في العالم مازالت بيد مسافرا؛ فقد جلبتها أمي رحمها الله من مكة المكرمة قبل أكثر من ربع قرن..حقيبة من الجلد الطبيعي قالت انها اشترتها من أحد الزنوج ذوي الشفاه الغليظة ولاتعرف إن كان من العرب أو من الأجانب، لكنها وصفتهم بالعمالقة" تكاد رؤوسهم تطول السماء"...
وعند ذهابي الى الحرب مع ايران اصرت امي على أن آخذ هذه الحقيبة تبركا ببيت الله الحرام وقبر النبي لتحميني من شرور الحرب.
وعلى الرغم من كبر حجم الحقيبة إلا انها كانت خفيفة الوزن، ويبدو جلدها رقيقا جدا، وكلما تقادم الزمن ازداد رقة، وهي ذات حواف مجدولة بشرائط جلدية ايضا، تحيطها ثلاثة أحزمة من ثلاثة جوانب لتساعد في أحكام غلق السحاب النحاسي...
تنقلت معي هذه الحقيبة من أقصى جنوب العراق الى أقصى شماله، على حافات الحدود الملتهبة بالحرب..شهدت معي الانتصارات والهزائم، حفظت أسراري ومقتنياتي، حمت رأسي من أن يداف بالتراب حيث تكون وسادتي عندما تنقطع بي الطرقات أو تعز الوسادة في الجبهات، والمعسكرات، ومحطات القطارات، والكراجات. سال دمي عليها عندما جرحت في احدى المعارك، ضمت في جيوبها الداخلية رسائل حب وعتب وأشواق، وصور نساء أحببتهن، وكتبا ممنوعة ، وهدايا، وأموالا..فمن ياترى قدم لي كل هذه الخدمات في حياتي؟ ومن كان مخلصا لي مثلها ؟.
عندما رن هذا السؤال في رأسي تيقنت أن كل الذين هنأوني بوصولها عند بوابة المطار كانوا على حق !، وأن ما بذلته من أموال لادامة فرحتهم بوصولها لم تذهب سدى!...تغير كل شيء في وكأنني صحوت على تأنيب ضمير متأخر وقاس..
أمرت السائق بالتوقف وطلبت منه انزال الحقيبة ووضعها في المقعد الخلفي، فمثل هذه الحقيبة لايصح ان تكون عرضة للشمس والريح.تساءل السائق في البداية عن السبب، لكني كررت الأمر عليه فاستجاب فورا من دون ان يخفي استغرابه!.
وضعتها في المقعد الخلفي، وبقيت ممسكا بالشريط الجلدي الطويل الذي يستعمل لسحبها او رفعها بمثابة المقبض وكأنني أمسك بجديلة أمرأة أحبها وأخشى فراقها.
عندما وصلنا الفندق منعت العامل من أن ينقلها الى غرفتي، فحملتها بنفسي ووضعتها برفق على سريري، أردت أن أفتحها لأخذ احتياجاتي الملحة منها إلا أنني وجدت نفسي ممددا جنبها وجسدي يضج بالتعب والارهاق، وممسكا بالشريط أمسده مسترخيا لنعومته المطواعة. شعرت ان جسدي يذوب أو يتسامى بنشوة فائقة ارتخت لها جفوني على كرتي عيني بما يشبه الاغفاءة..
ـــ أشتقت الي أم الى حاجاتك في داخلي؟
كان الصوت ناعما وهامسا لايشبه أي صوت لحروف منطوقة، هو مزيج من حركة ريح وحفيف شجر، ولفرط رقته هز كل خلايا جسدي، ونطقت به كل مساماتي..ربما هي تهيؤات الاسترخاء من التعب أو لحظات ماقبل النوم؟..هكذا فسرت الأمر مع نفسي وحاولت تجاهله..
ـــ هل نمت؟
رفعت رأسي من السرير وأدرت وجهي في جميع الاتجاهات ، شددت الشريط نحوي ومن ثم تركته وكأنني أستنطقه..
ـــ استرح..انك متعب..أنا ايضا تعبانة فلا تشدني هكذا من شريطي وتثير أوجاعي..
تفحصت الحقيبة وجيوبها بنظرات قلقة ومتقافزة برعب لعلي أرى مخرج الصوت..
ـــ قلت لك أسترح..لاتقلق هو ألم حارق في أحشائي ربما يزول بزوال التعب..
أعدت رأسي الى السرير وفقدت الأحساس بوجود جسدي، حتى خلته يسيح ويتسرب في مسامات الشرشف القطني الأبيض.
ـــ كدت أتمزق وأنا أراك تصعد سلم الطائرة بعد أن أوقف موظف الشحن حركة الحزام الناقل للحقائب قائلا"لاتحتمل الطائرة حقائب أخرى"..للوهلة الأولى شعرت أنها مؤامرة.
استفزتني كلمة "مؤامرة" فهي تزعجني لكثرة سماعها وسهولة اطلاقها على أي شخص، حتى اني ماعدت أكترث لمعناها ..منذ عقود من الزمن وانا اسمعها من الاذاعة والتلفزيون ومن الناس وأقرأها في الصحف، بها قطعت آلاف الرقاب –وربما لهذا السبب اكرهها حتى ان جسدي ارتعش متقززا عند سماعها فاهتز السرير لشدة ارتعاشي..
ـــ نعم انها مؤامرة علينا أنا وانت!.. فهذه هي المرة الأولى التي أراك تسافر من دوني..انها عشرة اكثر من ربع قرن كيف تريدني أحتمل الفراق؟..أنت طبعا لاتدري ، ربما كنت ستتمزق مثلي، ولا أكتمك أن مأخفف ألمي هو أنك لاتدري بأمر موظف الشحن وبقائي في بغداد..كنت أريد ان تكون سعيدا بسفرتك حتى ولو بدوني.
استيقظت في أعماقي عقود من الحب والأشواق تكفي لعشق عشرات النساء، وجعلتني أتشظى وكدت انقلب على النصف الآخر من السرير لأضم الى صدري شيئا ما ، أشعر انه قريب مني وسيطفئ لهيب أشواقي..
ـــ عندما جلست انت في مقعدك بالطائرة، كان العمال قد لفوني مع الحقائب المتبقية الفائضة عن سعة الطائرة بشبكة كبيرة وأعادونا الى عربة طويلة يسحبها شيء مكعب يشبه رأس شاحنة صغيرة يقوده رجل عصبي المزاج غير واضح الملامح ..قادنا بسرعة الى المخزن وسط نظرات متسائلة لأشخاص من مختلف الجنسيات والوظائف..من دون ان يسأله أحد منهم برغم ان الأسئلة كانت واضحة على وجوههم...دلف بنا مباشرة الى مخزن قليل الإضاءة يقع تحت صالة المسافرين، وهناك نادى على عامل دخل علينا وهو يتأفف ويدردم بكلام يعبر عن غضبه واستيائه، فسحب الشبكة من فوقنا ودفعنا بقوة، فتساقطنا على أرض اسمنتية تلوح عليها بقايا دهون وأوساخ، فصادف سقوطي على نتوء في جانب العربة، فهتك حافتي المجدولة، وشعرت بشيء يتكسر بداخلي ويشعل النار في أحشائي.
استفزتني مرة أخرى كلمة "هتك"وشعرت أنها جرحت اعماقي لكنني لم استطع أن أفعل شيئا، لابل أنني لم أستطع النهوض من سريري..
- لم يؤلمني ما أصاب حافتي المجدولة التي تحبها، بل ألمني واقلقني ان سجائرك واقلامك وأدوات الحلاقة التي تستعملها وكتبك وقنينة عسل التمر ستتكسر أو تتمرد..وأكثر ماقلقت عليه هو قنينة عسل التمر، لأنني أعرف جيدا كم تحب عسل التمر، وأتذكر أنك قلت" أشعر بالحيف عندما أشتري عسل تمر عراقي من بلد غير العراق". نسيت الألم بعد ان سحبت ظلفتي باب المخزن الى بعضهما على سكة أرضية، انغلق الباب..كادت رائحة الدهون تتلاشى، وبدأت تعط روائح عطور نسائية ورجالية وصوابين ومعاجين حلاقة، اطعمة وتبوغ وادوية ومكياج..خليط من الروائح الطيبة والكريهة..كانت الكآبة تخيم على جميع الحقائب، والصمت يزيد المخزن وحشة، برغم أصوات محركات الطائرات التي تأتينا من أبعاد مختلفة، واصوات بشرية بلغات عربية وأجنبية لاأعرف معناها..كان الضيق باديا علينا جميعا بسبب وضعنا الواحدة فوق الأخرى دون أعتبارات لصغر أو كبر الحقيبة، لذلك بدأت الحقائب تتململ في مواضعها محدثة حركة جعلتها تتخلص من الضيق بالأنسحاب أو الزحف الى الفراغات والزوايا، فقد كان المخزن يتسع لنا جميعا، لابل لأضعاف عددنا...عندما هبط الليل لم نشعر به إلا بعد أن دوت أصوات انفجارات لقذائف تسمع عن بعد، لكن صوتها يتضخم في المخزن، عندها قالت أحدى الحقائب:"جاء الليل ..وجاء القصف" سألناها"أيقصفونا؟".أجابت:"لاأعرف، أنها قنابل هاون تطلق ولانعرف أين تسقط..لكن لم يحدث ان سقطت قذيفة على مخزننا من قبل" .سألناها:"وكيف عرفت؟".قالت:"أنا حقيبة العدد والأدوات الاحتياطية التي تستعمل في تصليح الطائرات ومكائن المطار..منذ سنوات وأنا هنا"..لاأكتمك، أستولى علي شعور بالخوف ان تسقط علينا قذيفة وأحترق من دون أن أراك..
داعبت هذه الجملة عواطفي، ونمت شعوري بالفقدان، فقدان شيئ ما يترك في الحياة تجويفا يشوه شكلها، ومن ثم داهمني شعور بالذعر..الشعور نفسه الذي كان يربك لحظاتي عندما أسمع أصوات القذائف المجهولة التي تتقاطع في سماء مدينتي ..قذائف مجهولة، يطلقها مجهولون وتستهدف مجهولين!..انقلبت على جنبي واحتضنت حقيبتي، وضعت خدي عليها، فملأت أنفي رائحة دهون وأكاسيد زنخة، ورماد..فقلت:
ـــ استرح..الخوف زال عنا بعد أن نطقت حقيبة المطار، وقد تعرفنا على شكلها في الصباح عندما تسلل الضوء من المسافة مابين الظلفتين ؛ كانت حقيبة صغيرة عليها علامة المطار، موضوعة على بدلة فسفورية تضيء في الظلمة من تلك التي يلبسها الملاحون الأرضيون في المطارات...تحركنا باتجاه فتحة مابين الظلفتين التي تشبه عمودا من فضة يمتد من الأرض الى السقف..رأيت رجالا ضخاما، حليقي الرؤوس، يضعون على عيونهم نظارات سودا، تلتف على رقابهم وبين أذانهم وأفواههم أسلاك دقيقة لاتكاد ترى، تتدلى على صدورهم أشرطة وبطاقات تعريف، بملابس شبه عسكرية، احيانا عسكرية، يمسكون أسلحتهم بحالة تأهب وأستنفار، يتحركون بخفة...هناك أيضا رجال بملابس الشرطة العراقية..ورجال قصار القامة يرتدون قبعات نسيجية عريضة تشبه القبعات المكسيكية، بملابس كاكية لاتكاد تفرق بينها وبين لون بشرتهم الترابية كأنها نحتت بتراب أرض سبخة، وعيون ضيقة ..تمعنت بأحدهم ؛ يبدو أنه يحرسنا، قامته قصيرة جدا الى الحد الذي أستطيع القول انه قميء، بشرته حرشفية غامقة، ملامح دقيقة تضيع في تجاعيد وخطوط الوجه اليابسة، يمسك بندقية تبدو أطول منه، تتدلى على صدره بطاقة ملونة عريضة، سألت " ما هذا الكائن الغريب؟"، قالت حقيبة المطار "حراس المطار من فيجي والنيبال أو من..." قاطعتها مستغربة"لم أسمع بهذه الأسماء!" قالت" ولا أنا..لكن ألم تسمعي بقوات متعددة الجنسيات؟..يعني قوات الأحتلال" . ردت حقيبة كانت تزاحمني من الخلف ساخرة"قوات متعددة الاستعمال!"، ضحكنا جميعا، وشعرت أننا سندخل في موضوع السياسة الذي قرفت منه، فرحت أفكر مع نفسي هل هذه الحقائب مهمومة بأصحابها مثلما أنا مهمومة بك؟؟
أثارتني مشاعر حقيبتي بقوة هذه المرة، طفرت الدمعة من عيني، أدرت وجهي عنها ورحت أبكي بحرقة، وأنا الذي لم تبكني الحروب ولا الحصارات، وهي تعلم بذلك جيدا..لكن نبرتها جعلت كل تاريخنا المشترك يمر سريعا مثل الشريط ويبكيني!..شعرت بلذة للبكاء لم اعرفها من قبل!، وتمنيت أن تستمر هذه اللذة لولا أنها حرمتني منها عندما قالت:
- الأيام الأربعة التي قضيناها في المخزن جعلتنا نتعرف على محتويات بعضنا، تارة من خلال الروائح، وتارة أخرى بالأسئلة واللمس. فقد أضفت أحدى الحقائب على أيامنا شيئا من الظرافة والمرح، وهي حقيبة راقصة غجرية امتهنت الرقص الشرقي في ملاهي مصر..ألححنا عليها أن تفتح سحابها، فامتنعت وقالت"ماذا تريدون أن تروا؟، أنها بدلات رقص وملابس داخلية ومشدات صدر مذهبة وعلب مكياج وأحذية ومناشف وبناطيل وتنورات وملابس حجاب اسلامي مع خمارات من مختلف الأشكال..كانت الحقيبة صغيرة وتميل الى النعومة في شكلها وقد أثارتنا بتعداد محتوياتها، وتخيلنا أنها عاشت أياما سعيدة مع صاحبتها في الملاهي وحفلات الرقص الخاصة، لكنها عبرت عن سوء طالعها لأن القدر رماها مع راقصة أختارت مصر مقرا لعملها فهي مثل الذي(يبيع الماء في حارة السقائين)، بينما المحظوظات من زميلاتها صاحبن الراقصات المتوجهات الى الخليج حيث يمتلئن بالدولارات...طلبنا منها ان تنسى سوء طالعها وترقص لنا قليلا لتبدد وحشة المخزن وضجر الأنتظار، فأجابت بمرح"الرقص يجب أن يكون مع الغناء والموسيقى، واذا غنينا فالحرس هنا أما أجانب لايفهمون لغتنا فيعتقدون أن غناءنا ترتيل ديني فيعتقلونا بتهمة الأرهاب، أو متدينون متطرفون فيكفروننا ويمزقوننا بسيوفهم على الطريقة الاسلامية..أفضل شيء أصمتوا!!".
قلنا لها"أرقصي على الصامت!"، ضحكت وأقسمت أنها لاتعرف الرقص، لأنها عندما ترقص صاحبتها تكون هي في غرفتها، بانتظار ان تنتهي وصلتها لتعود وتحشوها بملابسها المبتلة بالعرق وخليط من الروائح المقرفة، وأحيانا تلقي فيها ملابسها الداخلية التي تكون في أشد حالات قذارتها عندما يستأجر الرجال جسدها ويتركون مخلفات شهوتهم عليها!..
قهقهت مع نفسي وأنا أتخيل الحقيبة مفتوحة والراقصة تخلع ملابسها المبتلة بالعرق وروائح الخمور والتبوغ..لكني مالبثت أن شعرت بالتقزز لمنظر الملابس المتخيل وعليها بقايا شهوات الرجال الغرباء..صاحت بي حقيبتي:
- أترك هذا ..سأكلمك عن حقيبة كبيرة جدا ومنفوخة، بقيت طوال الوقت متكئة على حائط المخزن من دون أن تتكلم، وكأنها تستهجن مرحنا أو تترفع علينا!، لكن حقيبة الراقصة بشقاوتها وبهلوانياتها استنطقتها واستدرجتها للكلام، فعرفت نفسها في البدء أنها من (منظمات المجتمع المدني)، ضحكت حقيبة الراقصة متسائلة باستخفاف عن معنى(المجتمع المدني)وضحكنا معها، فراحت الحقيبة الكبيرة تداري احراجها بمحاولة توضيح المعنى"انها منظمات انسانية"، وأضافت أن صاحبها اشتراها مؤخرا، لأنه كان لايملك في بيته حقيبة للسفر باستثناء حافظات صغيرة للأوراق كان يستعملها في عمله معقبا للمعاملات في دوائر الدولة قبل سقوطها، كان سمسارا ذكيا يصل الى أعلى مستويات الدولة وينجز أية معاملة مهما كانت معقدة بالفلوس والولائم والهدايا...وبعد ان سقطت الدولة وجاء الأمريكان، ازدهرت تجارة تأسيس الصحف والأحزاب والمنظمات، ولأنه لايفهم في الصحافة ولافي السياسة فقد أسس منظمة لحماية البيئة بإحدى البنايات الحكومية التي أحترق نصفها ونهب النصف الآخر، لكنه وبذكائه المعروف استطاع الحصول على عدة مناضد وكراس جعلها مكتبا لمنظمته عززها بيافطة كبيرة على واجهة البناية، وقد حصل على مبالغ من المال من منظمات أجنبية كانت تزور البلد بكثرة وتشجع على مثل هذه الأمور، لكن اللعبة لم تستمر فقد اكتشفت هذه المنظمات وبوشاية من مكاتب منافسة أنه ليس مهندسا ولاطبيبا لكي يؤسس مثل هذه المنظمة واتضح أنه لايعرف معنى البيئة، وبحركة شاطر غير عنوان منظمته الى(الحقوق الديمقراطية لسائقي الأجرة) وطالب بعدم تهميشهم عند استيراد أي نوع من السيارات وطالب بحقوق جميع السائقين الذين عملوا بالسخرة في زمن النظام السابق، وفعلا استطاع جمع مبلغ كبير من اشتراكات السائقين ومساعديهم، لكنه لم يستمر بسبب أشتراط جهات امريكية وحكومية على ان يكون مؤسسو مثل هذه المنظمات من حاملي شهادة القانون والسياسة لكي يحصلوا على الاعانات المخصصة للمجتمع المدني، وحاول تأسيس منظمات أخرى وفشل حتى نجح في تأسيس منظمة"حقوق الأيتام أمانة في عنق المجتمع"، ومرد نجاحه في هذه المنظمة هو أن أحد أصدقائه المعلمين كتب تقريرا أشار فيه الى ان العراق أكبر بلد في العالم بانتاج الأيتام على مدى العقود الأخيرة وربما على مدى التاريخ، ومما زاد من نجاحه في هذه المنظمة هو ازدياد وتيرة انتاج عشرات وربما مئات الأيتام في لحظة واحدة بعد دخول تقنية السيارات المفخخة، وأرفق مع التقرير صورا لأشلاء أطفال ممزقة، وأطفال في مكبات النفايات وتقاطعات الطرق بهيئات بائسة وملابس رثة..هذا التقرير نال استحسان عجوز أوربية فأغدقت عليه بالأموال والمؤتمرات والسفرات، مما أضطره الى أن يعين مترجما له وسكرتيرة، واثث مكتبه بعدد من أجهزة الكومبيوتر وأجهزة الأستنساخ والطابعات الليزرية لكنه لايجيد أستعمالها...تساءلت حقيبة الراقصة"وماذا تفعل منظمتكم للأيتام..هل أعدتم آباءهم اليهم؟".أجابت الحقيبة الكبيرة"هذا أمر ربك..ليس بمقدور البشر أن يغيروه..لكن الحمدلله حصل صاحبي على أموال كبيرة اشترى فيها بيتا كبيرا، كما اشترى لأولاده سيارات فاخرة لكي يقيهم غائلة اليتم بعد وفاته ولايتركهم عالة على منظمات مستقبلية..عظمة صاحبي انه استراتيجي لايفكر بالحاضر وإنما بالمستقبل، ولايريد لأطفاله إذا تيتموا في المستقبل أن يشوهوا صورة الوطن مثلما يفعل الأيتام الآن.." علت نبرة حقيبة الراقصة بمسحة من الأسى عندما سألت بحدة "والآخرون؟" .أجابت الحقيبة الكبيرة"طبعا وضعهم في حساباته، فكما قلت لكم منظمتنا انسانية، فقد استطاع صاحبي أن يبعث والدته الى بيت الله الحرام بالطائرة، ويعين أخاه الأصغر معه، وأشترى محلا لأخيه الكبير، وسيارة نقل شغّل فيها ابن اخته الذي فقد اباه في الحرب، كما وزع بطانيات وملابس وأغذية حصلت عليها منظمته على كل أقاربه حتى الدرجة الرابعة..."صاحت حقيبة الراقصة بغضب"أقصد الأيتام!" أجابت الحقيبة الكبيرة بإسترخاء"أمانة في أعناقنا".
ساورني الغضب لغضب حقيبة الراقصة من اجابة الحقيبة الكبيرة، فشعرت ان النيران تلتهب في جسدي، وان ملابسي تحترق، وما عدت أطيق نفسي..نهضت فزعا متوترا لاستبدال ملابسي التي تكلس عليها العرق والأوساخ.
فتحت حقيبتي بغضب، وهالني ما رأيت؛ زجاجة عسل التمر مكسورة، والعسل تشرب في محتوياتها وجعلها متفحمة، وكأنه سائل حارق وليس ذلك السائل الحلو المذاق...! كل شيء تفحم ولم يعد نافعا!!..نظرت الى حقيبتي بأسى وعدت الى فراشي أتفكر بالأمر.

القاهرة ٢٠٠٦

حلم الأعمى

رضا المحمداوي

ارقب نجمك
واحلم بعطرك الشهي منداحا
في سماوات احتراقي
هل تظنين إننا ما زلنا أبرياء
أيتها المجرة
ومن منا يخبئ دمه احترازا
من اندلاع القيامة
سوادها مضيء
وعيناي شموع منطفئة
لكن رمادها يؤثث مداري بالابهة
حتى يستفيق الورد الذي بين أصابعي
من دهشة الحضور
ما لهذه الظلمة
لا تنتبه لفتنتها
كي تستجيب لرغبة القمر المستكين
ترى
بماذا يحلم الأعمى
اترك ضجيج صباحاتي المطعونة بالندى
والهث خلف نرجسة ميتة
رغبة مني
في إيصال المعنى للمياسم القاحلة
قبيل الصباح الأخير
داهمني غريب
فكشفت له وجهي
لكنه تجاهلني متعمدا
بعدما قرأ بياض وجهي والتجاعيد
ومضى يدقق في جوازات المسافرين
بحوزتي شظية عاطلة
أطفأت نور الله في عيوني
ولذا تساءلت
- وأنا في لجة الطوفان-
بماذا يحلم الأعمى
الحواس عالقة في حلاوتها
مثل عناكب في شبكة
ورغبتي مندلقة على ثيابي
كالموسيقى
فارقص في حضرتها مجنونا
الا من نطفة عقل
اشد بها خطوتي
لما تبقى من طريق
آه يا روحي
لماذا ازداد بياضا
كلما اوغلت فيك ايها السواد
وهبني ملكت سماء الله بما وسعت
فمن تلك التي تحبني
إذا علا السخام وجهي
وتركتني النجمة المؤتلقة
تفحمت سماواتي
وترمدت نار صبوتي
وخبوت منطفئا مثل مصباح مفقوء
فأراني أعصر خمرا من فاكهة
تالفة
اغني لامرأة بيضاء
تأخذني الى حدائق لذتها
وتمص رحيق جسدي المعتق منذ سنين
..... بعدها
تضع الخبز اليابس على رأسي
كي يأكل الفقراء منه
وتطلقني في العراء
ظلمة
تغوص في ظلمة
وليس لي فيها من دليل
..... مضيت وحدي
اجوس وحشتي بعصا مكسورة
أهش بها على هواجسي المضيئة
وابعد عنها
ظلام الظنون

من المكتبة العراقية

الميثولوجيا.. من نرام سين الى بول بريمر

صدر للكاتب نعيم عبد مهلهل، عن دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع في دمشق، كتاب يحمل عنوان (الميثولوجيا من نرام سين الى بول بريمر) وهو مجموعة مقالات ودراسات تتحدث عن الميثولوجيا العراقية، وتأثيرها على الكثير من الفنون والآداب التي انبثقت فيما بعد.
ففي المقال الذي حمل الكتاب عنوانه، يتحدث الكاتب بلغة تقترب من الشعر عن العراق، وهو يستدعي عدداً من الرموز الدينية والميثولوجية، لدعم وجهة نظره: يقع العراق في منطقة قلب الروح حيث العالم ينتهي عند شفتي المدونة، وحيث يستطيع الملوك تدوين رغبات الالهة بدماء الفقراء..
وهنالك مواضيع أخرى مثل الموسيقى السومرية (الروح اولاً) ونبوءة مقال والحرب على العراق وغيرها.

محنة الجهاز الإداري العراقي

تأليف: طارق عبد الحميد الكنين

مراجعة : زياد مسعود

صدر حديثاً للباحث طارق عبد الحميد الكنين كتابه (محنة الجهاز الاداري العراقي) يضم ذكرياته ومذكراته عن الجهاز الاداري العراقي وتطوره منذ العهد الملكي، وقد خص الفصل الأول لبعض شخصيات العهد الملكي فيما اختص الفصل الثاني بذكرياته عن الشخصيات الادارية في العهد الجمهوري وتجاربه المتعددة كاداري فيه مع جزء من تقارير ديوان الرقابة المالية حول تجاوزات بعض الاداريين وتصرفاتهم فيما جاء الفصل الثالث تحت عنوان (وزارة التعليم العالي والبحث العلمي) تعرض فيه الى تجاوزات وزراء البكر –صدام وخروجهم على القوانين والانظمة ذاكراً وقائع متعددة تؤكد ذلك وكان (نادي المنصور) موضوع الفصل الرابع الذي تحدث فيه عن تاريخ النادي والتجاوزات فيه فيما كان الفصل الخامس خاصاً بـ(شركة المدينة السياحية) وكان ختام الكتاب تجربة المؤلف الادارية في (المصرف المتحد).
ويعد هذا الكتاب وثيقة ادارية تتعلق بتجربة المؤلف العريضة في كل الاماكن التي اشتغل فيها ولمس عن قرب تفاصيل احداثها.